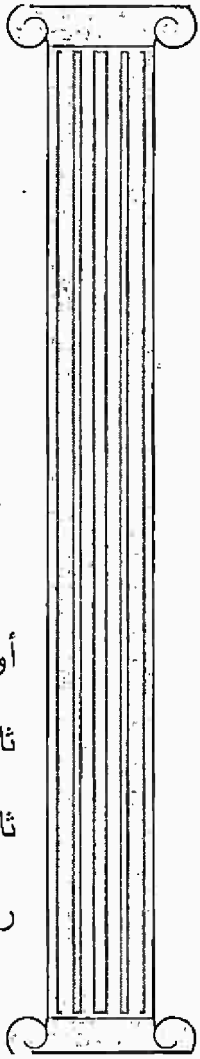

الفصل الأول

ذو النون المصرى

حياته ومؤلفاته ومذهبه الصوفى

أولاً : مكانته فى عالم التصوف

ثانيًا : حياته واهتماماته الفكرية

ثالثًا : آثاره وكتاباته

رابعًا : منهجه فى المعرفة ومذهبه فى التصوف

الفصل الأول

ذو النون المصرى

حياته ومؤلفاته ومذهبه الصوفى

أولاً - مكانته فى عالم التصوف :

يعد ذو النون المصرى (١٥٥هـ/ ٧٧١م - ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) واحداً من أشهر رجالات التصوف الإسلامى عبر تاريخه، وهو فى رأى الكثيرين من مؤرخى التصوف وأعلامه مؤسس التصوف، وأول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق وأول من تحدث فى مصر عن «الأحوال» و«المقامات» الصوفية. كما كان أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفى وأول من وضع للوجد والذكر والحب تعريفات محددة. كما كان أول من جمعوا بين هذه الريادة الصوفية والاهتمام بنواحى العلم المختلفة فكان عالمًا فقهيًا وأديبًا وحكيمًا، طبيبًا وكيميائيًا وفيلسوفًا قبل أن يكون وحيد عصره وإمام المتصوفة فيه.

ثانيًا - حياته واهتماماته الفكرية :

ولد ثوبان بن إبراهيم المكنى بأبى الفيض والملقب بذى النون المصرى على الأرجح فى صعيد مصر بمدينة أخميم فى حوالى عام ١٥٥هـ - ٧٧١م على التقريب كما كانت وفاته بمصر أيضا حوالى عام ٢٤٥هـ - ٨٥٩م.

ورغم اختلاف المصادر حول تاريخ مولده ووفاته، إلا أنها تكاد تجمع على أصله النوبى حيث كان أبوه إبراهيم نوبيًا نزل بأخميم وأقام فيها فنسب إليها، وكان عبداً أعتقته قبيلة قريش فأصبح مولى لها. وذكر الخطيب البغدادى صاحب «تاريخ بغداد» أن أباه كان مولى لإسحق بن محمد الأنصارى. وأن له ثلاثة أخوة هم: ذو الكفل وعبد البارى والهميع. أما لقبه الذى اشتهر به وهو «ذو النون» فيعنى صاحب الحوت. وقد لقب به لإحدى كراماته حيث كان يسير ذات يوم على شاطئ النيل فوجد سيدة تبكى بشدة وجزع فسألها عما يبكيها فقالت إن ولدها ابتلعه الحوت فلما رأى ذو النون حرقتها على ولدها صلى ركعتين ثم دعا الله أن يظهر الحوت فخرج إليه فشق جوفه وأخرج ولدها حيا سليما[١].

يقول البستانى فى «دائرة المعارف» فى صفاته الشخصية أن ذا النون كان رجلا نحيفًا تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية[٢].

أما عن أساتذته فترى بعض المصادر أنه تتلمذ على شقران العابد فكان شيخه فى الطريقة الصوفية، وترى مصادر أخرى أن أستاذه فى التصوف هو إسرافيل المغربى. وتشير المصادر إلى أنه كان كثير السفر والترحال طلبًا للعلم والمعرفة. ويغلب الظن بأنه قد أقام فى الحجاز زمنًا حيث تتلمذ هناك على الإمام مالك بن أنس وقد عُد بعد ذلك ضمن جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك رضى الله عنه على حد تعبير ابن خلكان[٣]. وقد ذكر أن أبى محمد التسترى لقى ذا النون بمكة[٤].

تنوعت فيما يبدو اهتمامات ذى النون فى شبابه حيث شغل فترة بحفظ الحديث وروايته ويبدو أنه قد نال من الثقافة الدينية فى أول أمره ما أهله لذلك. كما شغل كذلك بالبحث فى العلوم المختلفة وخاصة علوم الطب والفلسفة والكيمياء، لكن كان آخرها أكثر اهتماماته العلمية فقد عده القفطى من طبقة جابر بن حيان فى هذا العلم[٥].

وتحدث ابن النديم عن أثره فى هذا العلم وذكر بعض كتاباته فى «الصنعة» أى فى علم الكيمياء[٦]. ومعظم المصادر تؤكد هذه الاهتمامات العلمية لذى النون. وكان المسعودى أول من أكد ذلك باعتباره كان الأقرب إليه فقد توفى بعده بمائة عام وجمع معلومات

من أهل أخميم ذاتهم حيث زارها بنفسه. وقد سمع منهم أنه كان من المعنيين كثيراً بفك رموز الكتابة الهيروغليفية فى المعابد (البرابى) وأنه وفق بالفعل فى كشف أسرار كثير من الصور والنقوش المرسومة على جدرانها. وقد نقلوا عنه أنه وجد كتابًا فتدبره فإذا هو «إحذر العبيد المعتقين، والأحداث المقربين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين» ووجد كتابًا آخر فقرأه فإذا هو «يقدر المقدر والقضاء يضحك»[٧].

وقد أكد صاحب «حلية الأولياء» ذلك حينما روى عن أحدهم قوله أنه سمع ذا النون المصرى يقول: قرأت فى باب مصر بالسريانية كتابا فتدبرته فإذا فيه «يقدر المقدرون والقضاء يضحك»[٨].

ويعلل نيكولسون اهتمام ذى النون بالنقوش المصرية القديمة المكتوبة على المعابد وفك رموزها بأن مصر القديمة كانت فى نظر المسلمين مهد علوم الكيمياء والسحر وعلوم الأسرار[٩].

وعلى أى حال فلم يكن ممكنًا لذى النون وهو المهتم بالبحث فى حقيقة الوجود أن يبتعد عن التأثر بالبيئة المصرية القديمة وخاصة أنه نشأ فى هذه البلدة العريقة أخميم التى كانت على حد تعبير القفطى «بيتا من بيوت الحكمة القديمة والتى فيها التصاوير العجيبة

والمثالات الغريبة التى تزيد المؤمن إيمانًا والكافر طغيانًا »[١٠].

أما عن سبب اتجاهه إلى الزهد والتصوف، فقد روى عن أحدهم أنه سأله عن سبب توبته فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان: إحداهما ذهب والأخرى فضة، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا، فقلت: حسبى قد تبت ولازمت الباب إلى أن قبلنى[١١].

وقد روى من أخباره الكثير؛ فقد استحضره الخليفة المتوكل من مصر، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرمًا، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكى ويقول إذا ذكر أهل الورع فحى هلا بذى النون[١٢]. وروى أن بعض الفقراء من تلامذته فارقه من مصر وقدم بغداد فحضر بها سماعًا، فلما طاب القوم وتواجدوا قام ذلك الفقير ودار واستمع، ثم صرخ ووقع، فحركوه فوجدوه ميتا، فوصل خبره إلى شيخه ذى النون، فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نمشى إلى بغداد، فلما فرغوا من أشغالهم خرجوا إليها فقدموا عليها، وساعة قدومهم البلد قال الشيخ: ائتونى بذلك المغنى

فأحضروه إليه، فسأله عن قصة ذلك الفقير، فقص عليه قصته. فقال له: مبارك؛ ثم شرع هو وجماعته فى الغناء فعند ابتدائه فيه صرخ الشيخ على ذلك المغنى فوقع ميتا. فقال الشيخ: قتيل بقتيل أخذنا ثأر صاحبنا، ثم أخذ فى التجهيز والرجوع إلى الديار المصرية ولم يلبث ببغداد بل عاد من فوره[١٣].

وقد روى أنه «لما حمل ذوى النون إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة. وقال أنا إذا رجعت غدا من ركوبى فأخرج إلى هذا الرجل. فقال له زرافة: إن أمير المؤمنين قد أوصانى بك، فلما رجع فى الغد من الركوب قال له: انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام. فلما أخرجه إليه قال له: سلم على أمير المؤمنين، فقال ذو النون: ليس هكذا جاءنا الخبر إنما جاءنا فى الخبر أن الراكب يسلم على الراجل. قال: فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام فنزل أمير المؤمنين فقال له: أنت زاهد أهل مصر؟ قال: كذا يقولون، فقال له زرافة: فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد. قال: فأطرق مليا ثم قال: يا أمير المؤمنين إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم، يا أمير المؤمنين إن لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه، أبدانهم دنيوية،

وقلوبهم سماوية قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفُرج وأطباق السموات، لم يختبئوا فى ربيع الباطل ولم يرتعوا فى مصيف الآثام ونزهوا الله أن يراهم يثبتون على حبائل مكره، هيبة منهم له وإجلالاً أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشىء لا يدوم، وبلذة من العيش مزدهرة فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أطباق أهل المعرفة بالأدواء والنظر فى منابت الدواء فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر، فقال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداووه أو مريض من تذكرى فأدنوه، أو ناسى لنعمتى فذكروه، أو مبارز لى بالمعاصى فنابذوه، أو محب لى فواصلوه، يا أولیائى فلكم عاتبت ولكم خاطبت ومنكم الوفاء طلبت، لا أحب استخدام الجبارين ولا قول المتكبرين، ولا مصافاة المترفين، يا أولیائى وأحبابى جزائى لكم أفضل الجزاء وإعطائى لكم أفضل العطاء، وبذلى لكم أفضل البذل، وأنا مقدس القلوب وأنا علام الغيوب، وأنا عالم بمجال الفكر ووسواس الصدر، من أرادكم قصمته ومن عاداكم أهلكته»[١٤].

وقد روى صاحب «حلية الأولياء» عشرات الروايات عن لقاءات ذى النون برفاقه من أهل الطريق الصوفى والزهاد، وقدم لنا عشرات

الروايات والنصائح التى ألقاها لتلاميذه والتى ألزمتهم الطريق وجعلتهم من خلصائه وأعلامه.

وقد توفى ذو النون بالجيزة فى مصر وقدر البعض تاريخ وفاته بأنه كان يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة عام ٢٤٥هـ أو من عام ٢٤٦ فى رواية أخرى. وقد حمل جثمانه فى مركب خوفا على الجسر أن ينقطع من شدة الزحام، وقال أحد من حضروا جنازته - فيما يروى صاحب حلية الأولياء - أنه رأى الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير، وقال آخر: لما مات ذو النون رأيت على جنازته طيوراً خضراء فلا أدرى أى شىء كان[١٥]. وقد ذكر أن بعض أصحابه دخل عليه وهو يحتضر فقالوا له: أوصنا فقال: لا تشغلونى فإنى متعجب من محاسن لطفه. وروى الهجويرى فى «كشف المحبوب» أنه فى ليلة وفاة ذى النون رأى سبعون رجلا النبى عليه السلام فى النوم وهو يقول: جئت لألقى ذا النون خليل الله. وأنه بعد أن فاضت روحه وجد مكتوبا على جبينه: هذا حبيب الله الذى مات فى حب الله، وقتله الله[١٦].

وقد دفن رضى الله عنه فى مقابر أهل المعافر بالقرافة الصغرى وعلى قبره مشهد مبنى وفى المشهد أيضا قبور جماعة من الصالحين[١٧].

ثالثًا - آثاره وكتاباته :

معظم آثار ذو النون أقوال متناثرة وروايات متعددة رواها أصحابه وتلامذته وتناقلها المؤرخون وأشهرهم وأغزرهم مادة كان الحافظ الأصفهانى المتوفى ٤٣٠هـ فى كتابه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

ومع ذلك فقد ذكر لذى النون بعض المؤلفات فى كتابات بعض المؤرخين؛ فقد ذكر له ابن النديم مصنفين هما:

١ - كتاب الركن الأكبر.

٢ - كتاب الثقة فى الصنعة.

وهما من تصانيفه فى علم الكيمياء[١٨]. وذكر له التفتازانى نقلا عن الرسالة القشيرية رسالة عنوانها:

٣ - «الكلام على البسملة»[١٩]. وذكر له المستشرق كارادى فو ثلاث مؤلفات أخرى هى:

٤ - المجربات: ويحتوى على إرشادات طبية وتجارب كيميائية وتمائم سحرية وطلاسم وعزائم، ويوجد فى مكتبة باريس.

٥ - أشعار فى حجر الحكماء: ويوجد أيضا فى مكتبة باريس.

٦ - مناظرة بينه وبين تلميذه يعقوب فى حجر الحكماء: ويوجد بمكتبة برلين[٢٠].

وبالطبع فإننا لا نستطيع أن نحكم على مدى ما وصلت إليه معرفة ذو النون العلمية إلا بعد أن تنشر هذه المخطوطات المشار إليها لنتعرف على مضمونها وعلى ما فيها من معارف منسوبة إلى ذى النون.

أما معارفه الصوفية وآثاره فى مجال التصوف فقد روى لنا منها عبر كتابات أصحاب الطبقات والمؤرخين ما يكفى للكشف عن رؤيته الصوفية وعن مذهبه فى الزهد والتصوف.

رابعًا – منهجه فى «المعرفة» ومذهبه فى «التصوف»:

روى أن ذا النون يقسم المعرفة إلى ثلاثة أوجه؛ معرفة التوحيد وهى لعامة المؤمنين والثانية معرفة الحجة والبيان وهى خاصة للفلاسفة والعلماء والبلغاء، والثالثة معرفة خاصة بالأولياء وهى معرفة صفات الوحدانية. وقد عبر عن الوجه الأخير للمعرفة وهى المعرفة الصوفية الكشفية بقوله حينما سئل: كيف عرفت ربك؟ فأجاب «عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى»[٢١].

ومع أن ذا النون قد انتهى إلى تفضيل المعرفة الصوفية الخاصة بالأولياء على سائر المعارف الأخرى إلا أنه كان يدرك أهمية تلك المعارف الأخرى وخاصة الموصلة منها إلى الله. فقد روى أحدهم عنه قوله «تنال المعرفة بثلاث: بالنظر فى الأمور كيف دبرها، وفى المقادير كيف قدرها، وفى الخلائق كيف خلقها ؟![٢٢].

ويبدو أن هذا المنهج العرفانى الذى فضله ذو النون قد شق على علماء وفقهاء عصره فهمه فأنكروه عليه وقالوا: أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة مما كان سببا فى اتهامه بالزندقه، وتعرضه للاضطهاد. والمعروف أنه قد اضطهد من قبل عبد الله بن الحكم شيخ علماء المالكية بمصر، ومن قبل ابن أبى الليث قاضى مصر مما جعلهم يأمرون بما حمله إلى بغداد مكبلا بالحديد لمحاكمته. وبالفعل

فقد سجن فى سجن «المطبق» ببغداد. ولما وصل الأمر إلى مسامع الخليفة المتوكل من بعض رجال الصوفية استدعاه وسمع منه ما جعله يطلق سراحه ويعيده إلى مصر معززا مكرما(٢٣).

لقد ألزم ذو النون نفسه بهذا المنهج الصوفى مما جعله يتجرأ وينقد مسلك كل علماء عصره وينعى عليهم بُعدهم عن حقيقة الدين. ومن أقواله فى ذلك «أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علمًا، ازداد فى الدنيا زهداً وبغضًا، وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علما، ازداد فى الدنيا طلبًا ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال فى طلب العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال». وقد قال فيهم أيضا: «قد غلب على العباد والنساك والقراء فى هذا الزمان التهاون بالذنوب حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون. أقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم، لا أعلم، هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح. إن سألوا ألحوا، وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التى يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو

والجدال والقيل والقال واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالستهم»[٢٤].

لم يكن نقد ذو النون لعلماء عصره يستهدف الهجوم عليهم لمجرّد الهجوم، بل كان يعبر فيه عن حقيقة دعوته إلى ضرورة الإخلاص فى كل عمل يعمله العبد؛ إذ لم يكن ينتقد فقط علماء وفقهاء عصره، بل انتقد أيضًا بعض دعاة الزهد. وقد روى عنه فى ذلك قوله: «إياك أن تكون فى المعرفة مدعيًا وتكون بالزهد محترفا، وتكون بالعبادة متعلقًا. فقيل له: يرحمك الله فسر لنا ذلك. قال: أما علمت أنك إذا أشرت فى المعرفة إلى نفسك بأشياء وأنت معرى من حقائقها كنت مدعيا وإذا كنت فى الزهد موصوفا بحالة وبك دون الأحوال كنت محترفًا! وإذا علقت بالعبادة قلبك وظننت أنك تنجو من الله بالعبادة لا بالله كنت بالعبادة متعلقًا لا يوليها المنان عليك!»[٢٥].

وقد زاد نقد ذو النون هذا للزهاد والعباد والمتصوفة وضوحًا حينما حذر أحد أصحابه وتلامذته: «يا خراسانى احذر أن تنقطع عنه فتكون له مخدوعا» ولما سأله: كيف ذلك؟! قال: «لأن المخدوع من ينظر إلى عطاياه فينقطع عن النظر إليه بالنظر إلى عطاياه». ثم قال: «تعلق الناس بالأسباب وتعلق الصديقون بولى الأسباب».

ثم قال: علامة تعلق قلوبهم بالعطايا طلبهم منه العطايا، ومن علامة تعلق قلب الصديق بولى العطايا انصباب العطايا عليه وشغله عنها به. ثم قال: ليكن اعتمادك على الله فى الحال لا على الحال مع الله. ثم قال: أعقل فإن هذا من صفوة التوحيد»[٢٦].

وإذا تركنا نقده لعلماء وفقهاء وزهاد ومتصوفى عصره، وتساءلنا عن رؤيته لحقيقة الطريق الصوفى مع ذلك الرجل الذى سأله: دلنى على طريق الصدق والمعرفة؟ فقال: «يا أخى أد إلى الله صدق حالتك التى أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة، ولا ترق حيث لم ترق فتزل قدمك فإنه إذا زل بك لم تسقط، وإذا ارتقيت أنت تسقط. وإياك أن تترك ما تراه يقينا لما ترجوه شكًا»[٢٧].

إن هذا الطريق الذى يشير إليه ذو النون أول معالمه هو موافقة الكتاب والسنة فى كل الأحوال، وثانيها التدرج فى الطريق بحيث لا يرتقى العبد إلى مقام إلا إذا كان أهلا له ومتيقنا من بلوغه.

إن من معالم هذا الطريق بعد الطاعة والالتزام بالكتاب والسنة، الزهد والتوكل على الله. وقد عرف ذو النون الزهد فقال أنه يعنى: «الهروب من جميع ما يشغلك عن الله، لأن جميع ما شغلك عن الله هى دنيا»[٢٨].

أما التوكل فهو «خلع الأرباب وقطع الأسباب» أو «إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية، فطوبى لمن تطهر ولزم الباب، طوبى لمن تضمر للسباق، طوبى لمن أطاع الله أيام حياته»، «من وثق بالمقادير استراح، ومن صحح استراح ومن تقرب قرب، ومن صفى صفى له، ومن توكل وفق، ومن تكلف مالا يعنيه ضيع ما يعنيه»[٢٩].

وقد قال ذو النون أن أعلام الزهد ثلاثة: قصر الأمل وحب الفقر والاستغناء مع الصبر، كما قال إن اعلام التوكل ثلاث: نقص العلائق وترك التملق فى السلائق واستعمال الصدق فى الخلائق[٣٠]. أما علامات الاستغناء بالله فهى: التواضع للفقراء المتذللين، والتعظم على الأغنياء المتكبرين، وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين. أما أعلام المعرفة فهى أيضا ثلاث: الإقبال على الله، والانقطاع إلى الله، والافتخار بالله[٣١].

وحينما سئل ذو النون عن أى الأحوال أغلب على قلب العارف السرور والفرح أم الحزن والهموم؟ قال: أنه ليس هناك حال يشار إليه دون حال ولا سبب دون سبب «إن مثل العارف فى هذه الدار كمثل رجل قد توج بتاج الكرامة وأجلس على سرير فى بيت ثم علق من فوق رأسه بشعره وأرسل على باب البيت أسدان ضاريان فالملك

يشرف كل ساعة بعد ساعة على الهلاك والعطب فأنى له بالسرور والفرح على التمام[٣٢]!.

ولما سئل عن كمال العقل وكمال المعرفة، قال إذا كنت قائما بما أمرت به تاركا لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت متعلقا بالله فى أحوالك لا بأعمالك غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة[٣٣].

وقال أيضا «البلاء ملح المؤمن إذا عدم البلاء فسد حاله»[٣٤].

ومن أفضل ما قاله فى هذا الصدد قاله عندما سئل عن حاله فقال: «مالى حال أرضاها ولا لى حال لا أرضاها، كيف أرضى حالى لنفسى إذ لا يكون منى إلا ما أراد من الأحوال، ولست أدرى أيا أحسن حالى فى حسن إحسانه إلى، أم حسن حالى فى سوء حالى إذ كان هذا هو المختار لى غير أنى فى عافية ما دمت فى العافية التى أظن أنها عافية إلا أنى أجد طعم ما عنده للذى تقدم من مرارة القديم وما حاجتى إلى أن أعلم ما هو إذا كان هو قد علم ما هو كائن وهو المكون للأشياء وهو الذى اختاره لى[٣٥].

وقد لخص ذو النون معالم الطريق حينما سأله أحدهم: كم الأبواب إلى الفطنة؟ فقال: أربعة أبواب: أولها الخوف ثم الرجاء ثم المحبة ثم الشوق. ولها أربعة مفاتيح، فالفرض مفتاح باب الخوف،

والنافلة مفتاح باب الرجاء، وحب العبادة والشوق مفتاح باب المحبة وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق وهى درجة الولاية. وبعد أن فصل كيف يؤدى كل باب من هذه إلى ما بعده انتهى إلى القول بأن «من شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله فى قلبه نور الاشتياق إليه وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى يكون الله عز وجل هو الذى يناوله من يشاء من عباده»[٣٦].

وقد كثر حديث ذو النون فى الحب الإلهى، نثراً وشعراً فكان من أكثر صوفية الإسلام الأوائل عناية بتوضيح معناه وحقيقته، فقال عن «المحبة»: «هى التى لا تزيدها منفعة ولا تنقصها مضرة» أما دليلها فقد أوضحه شعراً بقوله:

شواهد أهل الحب باد دليلها * بإعلام صدق ما يضل سبيلها
جسوم أولى صدق المحبة والرضى * تبين عن صدق الوداد نحو لا
إذا ناجت الأفهام أنس نفوسهم * تحفى على الناس قبلها[٣٧]

وحينما سئل ذات مرة عن علامة الحب لله قال: إن المحبين لله شق لهم من قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى عز جلال الله فصارت أبدانهم دنيوية وأرواحهم حجبية وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة كالعيان وتشاهد ملك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ استطاعتهم بحبهم له لا طمعًا فى جنة ولا خوفًا من نار[٣٨].

وروى عنه شعرا يصف فيه حال المحبين مع الله قال فيه:

مجال قلوب العارفين بروضة * سماوية من دونها حجب الرب
تكنفها من عالم السر قربه * فلو قدر الآجال ذابت من الحب
وأروى صداها كاس صرف بحبه * وبرد نسيم جل عن منتهى الخطب
فيا لقلوب قربت فتقربت * لذى العرش مما زين الملك بالقرب
رضيها فأرضاها فحازت مدى الرضى * وصلت من المحبوب بالمنزل الرحب
لها من لطيف العزم عزم سرت به * وتهتك بالأفكار ما داخل الحجب
سرى سرها بين الحبيب وبينها * فأضحى مصونا عن سوى القرب فى القرب[٣٩]

لا أعرف شعراً بلغ هذه المرتبة من دقة الوصف وحلاوة الذوق لمقام القرب من الله ومحبته إلا بعض شعر رابعة العدوية وابن الفارض.

الهوامش

(١) انظر: البستانى : «دائرة المعارف».. المجلد الثامن، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٨٤م.

وأيضا: رينولد نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه، ترجمة د. أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م، ص٩.

وكذلك: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ، مجلد (١)، ص٣١٥ - ٣١٨.

(٢) البستانى: نفس المصدر السابق، ص٤١٥.

(٣) ابن خلكان: نفس المصدر السابق - مجلد (١)، ص٣١٥.

(٤) نفسه: مجلد (٢)، ص٤٢٩.

(٥) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، نشرة مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ - ص١٢٧.

(٦) ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندرانى، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م، ص٤١٩، ص٤٢٣.

(٧) السيد أبو ضيف المدنى: ذو النون المصرى، دار الشروق بالقاهرة وبيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، ص٤٣.

(٨) الحافظ الأصفهانى: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، الجزء التاسع، ص٣٣٩.

(٩) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى، ص١٠.

(١٠) القفطى: نفس المصدر السابق، ص١٢٧.

(١١) ابن خلكان: نفس المصدر، ص٣١٦.

(١٢) نفسه.

(١٣) نفسه، ص٣١٦ - ٣١٧.

(١٤) الحافظ الأصفهانى: نفس المصدر السابق، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(١٥) نفسه، ص٣٦٣.

(١٦) السيد أبو ضيف المدنى: نفس المرجع، ص٣٨ - ٣٩.

(١٧) ابن خلكان: نفس المصدر، ص٣١٨.

(١٨) ابن النديم: نفس المصدر، ص٤٢٣.

(١٩) د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، ص١٠٢.

وراجع: عبد الكريم القشيرى: الرسالة القشيرية، طبعة مصر ١٣٣٠هـ، ص١٤٣.

(٢٠) نقلاً عن: السيد أبو ضيف المدنى، نفس المرجع، ص٤٢.

(٢١) نيكلسون: نفس المرجع السابق، ص٧.
(٢٢) الحافظ الأصفهانى: نفس المصدر السابق، ص٣٣٩.
(٢٣) السيد أبو ضيف المدنى: نفس المرجع، ص٤٨، ٤٩.
(٢٤) نفسه، ص٣٧ - ٣٨.
(٢٥) الحافظ الأصفهانى: نفس المصدر، ص٣٥٠.
(٢٦) نفسه، ص٣٥١.
(٢٧) نفسه، ص٣٥٣.
(٢٨) نفسه، ص٣٥٢.
(٢٩) نفسه، ص٣٨٠.
(٣٠) نفسه، ص٣٦٢.
(٣١) نفسه، ص٣٦٢ - ٣٦٣.
(٣٢) نفسه، ص٣٦١.
(٣٣) نفسه، ص٣٧٣.
(٣٤) نفسه.
(٣٥) نفسه، ص٣٨٢.
(٣٦) نفسه، ص٣٧٨ - ٣٧٩.
(٣٧) نفسه، ص٣٧٨.
(٣٨) نفسه، ص٣٦٦.
(٣٩) نفسه، ص٣٦٩.

المصادر والمراجع

١ - ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندرانى، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.

٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، مجلد ١ . ٢، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ.

٣ - أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٧٩.

٤ - البستانى: دائرة المعارف، مجلد ٨، مطبعة المعارف ببيروت، ١٨٨٤.

٥ - الحافظ الأصفهانى (المتوفى ٤٣٠هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٦ - السيد أبو ضيف المدنى: ذو النون المصرى، دار الشروق بالقاهرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣.

٧- القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ.
٨ - عبد الكريم القشيرى: الرسالة القشيرية، طبعة مصر، القاهرة ١٣٣٠هـ.
٩ - نيكلسون ر.أ.: فى التصوف الإسلامى وتاريخه، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.